فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلته وإن كانت له، وإن كان العالم خاملا، فإن العلماء بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال. وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد:

لا تحقرن عالما وإن خلقت أطماره في عيون رامقه

وانظر إليه بعين ذي أدب مهذب الرأي في طرائقه

فالمسك بينا تراه ممتهنا بفهر عطاره وساحقه

حتى تراه في عارضي ملك وموضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم في رضى أخلاقهم، متشبها بهم في جميع أفعالهم، ليصير لها آلفا، وعليها ناشئا، ولما خالفها مجانبا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم، وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم. وروى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من تشبه بقوم فهو منهم. وأنشدني بعض أهل الأدب لابن دريد:

العالم العاقل ابن نفسه ... أغناه جنس علمه عن جنسه

كن ابن من شئت وكن مؤدبا ... فإنما المرء بفضل حسه

وليس من تكرمه لغيره ... كمن تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وإن آنسه، والإدلال عليه وإن تقدمت صحبته. قيل لبعض الحكماء: من أذل الناس؟ قال: عالم يجري عليه حكم جاهل. وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي، فقال لها: من أنت؟ فقالت: بنت الرجل الجواد حاتم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارحموا عزيزا ذل، ارحموا غنيا افتقر، ارحموا عالما ضاع بين الجهال. ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه، فإن في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه. وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره، فقصد من يعلمه بالإعنات له والاعتراض عليه إزراء به وتبكيتا له، فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبي البطحاء:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وهذا من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من علموه مستجهلين، ومن قدموه مسترذلين. وقال صالح بن عبد القدوس:

وإن عناء أن تعلم جاهلا ... فيحسب جهلا أنه منك أفهم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متى ينتهي

متى ينتهي عن سيء من أتى به ... إذا لم يكن منه عليه تندم

ولا ينبغي له على قبول الشبهة منه، ولا يدعوه ترك الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه، فإنه ربما غلا بعض الأتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل، وأن اعتقاده حجة وإن لم يحتج، فيفضي بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذوا عنه، ويؤول به ذلك إلى التقصير فيما يصدر عنه، لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه، فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت، أو يخرج أهلها عن أعداد العلماء فيما شاركت، لأنه قلما يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه، فيطالبهم بما قصروا فيه، فيضعفوا عن إثباته، ويعجزوا عن نصرته، فيذهبوا ضائعين، ويصيروا عجزة مضعوفين. ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حفل، وقد استدل الخصم عليه بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: هذه دلالة فاسدة، ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ فلا خير فيه. فأمسك عنه المستدل تعجبا، ولأن شيخه كان محتشما. وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل، ثم أقبل المستدل علي وقال لي: والله لقد أفحمني بجهله. وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئ ومتعجب، ومنهم من استعاذ بالله من جهله. فهل رأيت كذلك عالما أوغل في الجهل، أو أدل على قلة العقل. وإذا كان المتعلم معتدل الرأي فيمن يأخذ عنه، متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه، حتى لا يحمله الإعنات على اعتراض المبكتين، ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين، برئ المتعلم من المذمتين، وسلم العالم من الهجنتين. وليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتا، ولا قبول ما صح في النفس تقليدا. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: العلم خزائن ومفاتحه المسألة، فسلوا رحمكم الله، فإنما يؤجر في العلم ثلاثة: القائل والمستمع والآخذ. وقال: هلا سألوا إذ لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال. فأمر صلى الله عليه وسلم بالسؤال وحث عليه، ونهى أخرى عن السؤال وزجر عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: أنهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وقال: إياكم وكثرة السؤال، فإنما هلك من قبلكم بكثرة

Copyright © King Saud University